Enlightenment collection's
ISSN 2716-7852 / EISSN 2830-8719
V:15, N°:1 – 2025, P.P :01-13

سلسلة الأنوار
ر د م ك : 7852-2716 / ر ت م د إ: 2830-8719
المجلد 15، العدد1- 2025 ، ص.ص:01-13

الفلسفة وسؤال الطفولة: من موت الإنسان إلى موت الطفل

Philosophy and the Question of Childhood: From the Death of Man to the Death of the Child

دريزي عائشة

جامعة وهران 2 محمد بن أحمد/ الجزائر (drizi.aicha@univ-oran2.dz)

تاريخ الاستلام : 2024/10/09 ؛ تاريخ القبول : 2025/04/24 ؛ تاريخ النشر : 2025/05/20

الملخص

إذا كان الفيلسوف الفرنسي ميشيل فوكو قد أعلن في فلسفته "موت الإنسان"، فإن واقع الطفولة اليوم يؤكد ذلك من خلال إعلانه "لموت الطفل"، لذلك تسعى الفلسفة اليوم وانطلاقًا من بحثها في هذين الموتين إلى التأكيد على ميلاد شكل جديد للإنسان يجمع بين الطفولة –ليس بوصفها مرحلة عمرية – بل بوصفها ذاتَ دِلالةٍ رمزية تستشرف مستقبل هذا الأخير وبين نموذج الإنسان الذي صاغته الظروف الراهنة، من خلال الوقوف على أبعاد وخفايا الفجوة الإتيقية التي تفصل بين الإنسان والطفل، للوصول إلى فهم معاني الإنسان ومعاني الطفولة. على هذا الأساس، جاءت ورقتنا البحثية تناقش واقع الطفولة، ليس من منظور الحقوق والمواثيق، بل من زاوية المفاهيم والأسس المعرفية لهذه المرحلة.

الكلمات المفتاحية: موت الإنسان، موت الطفل، الفلسفة، الطفولة

Abstract

If the French philosopher Michel Foucault proclaimed the "death of man" in his philosophy, the reality of childhood today confirms this by announcing the "death of the child." Today, philosophy, through its exploration of these two deaths, aims to emphasize the birth of a new form of humanity that encompasses childhood—not as an age stage, but as a symbolic concept that foresees the future of humanity by examining the dimensions and subtleties of the ethical gap between man and child. On this basis, this paper discusses the reality of childhood, not from the perspective of rights and conventions, but from the standpoint of the conceptual and epistemological foundations of this stage.

Keywords: death of man, death of the child, philosophy, childhood

1.مقدمة:

مع مطلع القرن الحادي والعشرين، أصبح موضوع الطفولة من أبرز القضايا التي حظيت باهتمام السياسات الدولية والمواثيق الأممية، نظرًا لما تعرضت له هذه الفئة من أزمات أخلاقية ووجودية مست جميع جوانب حياتها. وقد أصبحت الأسئلة الفلسفية المتعلقة بالطفولة، مثل **ما هو الطفل؟ ما هي الفطرة؟ وما هي البراءة؟** وكأنها أسئلة غريبة تقابلها أسئلة الأطفال الوجودية التي تجمع بين البساطة والعمق: **أين الطفل؟ أين الفطرة؟ أين البراءة؟**. فبين الماهية (ما) والوجود (أين)، وعبر الأسس الكبرى: الله، الإنسان، والعالم، أضحى البحث في سؤال الطفولة من بين المهام الأساسية للفلسفة المعاصرة، التي انشغلت سابقًا بموضوع الإنسان، متناسيةً أن الطفل يمثل الشكل الأكمل له.

من هذا المنطلق، وعلى هذا الأساس دعت الحاجة الفلسفية اليوم بإعادة النظر في سؤال الطفولة من خلال إعادة صياغة تيمة الإنسان، وذلك بخلخلة السؤال الانثروبولوجي للفيلسوف الألماني "إيمانويل كانط" Immanuel Kant (1724 – 1804م)، (ما الإنسان؟) للوصول إلى فهم أعمق لأزمات الإنسان المعاصر، الذي فقد المعنى من وجوده بسبب التحولات الحاصلة على مستوى الطبيعة البشرية الناتجة عن إسهامات البيوتكنولوجيا وتطورات العالم الرقمي.

نسعى من خلال هذه الدراسة إلى البحث في سؤال الطفولة، لاستخلاص المضامين العميقة في العلاقة الثنائية بين الطفل والوجود، ومعرفة حقيقتها، بالإضافة إلى مساءلة الجوانب المستترة فيما تسميه "جرائم الطفولة الأنطولوجية" والتي تتخفى خلف أقنعة متجددة كالبراءة والسلام والمحبة.

من هنا، يمكن مقاربة الموضوع من خلال ثلاث مسائلات معرفية رئيسية: الأولى، بأي معنى يمكن لأسئلة الطفولة أن تكون موضوعًا للفلسفة والتفلسف؟ أو بعبارة أخرى: كيف يمكن للطفل أن يكون حاضرًا في المسائل الفلسفية الكبرى؟ والثانية، بأي معنى يمكن أن نتحدث عن موت الانسان في ظل حديثنا عن الطفولة؟ والثالثة كيف يمكننا فهم رمزية موت الطفل في الوقت الذي نحتفي فيه بحقوق الطفولة وباليوم العالمي للطفل؟ أو بصيغة أخرى، كيف يمكننا أن نتحدث عن "الموت" في لحظة يُفترض أن تكون مناسبة للفرح و عرس الطفولة؟ .

2. الفلسفة وسؤال الطفولة

إن المتأمل في تاريخ نشأة الفلسفة اليونانية سيلحظ أنها قامت على ثلاثة مرحل أساسية: الأولى مرحلة النشأة حيث تجسدت في الأفكار الفلسفة الأولى المتعلقة تحديدًا حول نشأة الكون أو ممَّ صُنع الكون، لتليها المرحلة الثانية مع الثالوث اليوناني، "سقراط" Socrates (470_ 399 ق.م) و"أفلاطون" Plato (427 _ 347 ق.م) و"أرسطو" Aristotle (384 ق م – 322 ق م)، حيث بلغ الفكر الفلسفي ذروته من الرقي، بفضل انفتاح العقل اليوناني على العالم من خلال النظم السياسية والتلاقح الفكري بين مختلف الشعوب. لكن سرعان ما تراجع الفكر نحو قضايا السعادة والزهد والبحث عن الخلاص الشخصي، كنتيجة لتمازج العقلانية الإغريقية بالتدين الروحاني الشرقي، بفعل توسعات الإسكندر الأكبر(356 ق.م_ 323 ق.م) التي سمحت للفكر اليوناني بالاختلاط ببقية المجتمعات الاخرى، لكن ما نود التأكيد عليه هنا ليس مجرد تأريخ للفلسفة، بل هو ربط هذا التطور بفكرة (الطفولة) باعتبارها ذروة اكتمال الفكر الفلسفي وتتويجًا لتألقه. من هذا المنطلق، يمكن القول إن الفلسفة تبلغ طفولتها من خلال مسائلة مفهوم الطفولة بحد ذاته. وهنا يجدر التنبيه أن للطفولة معنيين: الأول: يمثل مرحلة اكتمال المفاهيم و الحكمة، والثاني : يمثل الطفل الكامن في الانسان الذي يعد "الانسان الأعلى" بتعبير الفيلسوف "فريدريك نيتشه" Nietzsche Friedrich (1844_ 1900م).

لقد ظل موضوع الطفولة مهمشًا و مقصيًا و مسكوتًا عنه في التفكير الفلسفي منذ لحظته الأولى، حيث أُدرج ضمن العالم السفلي الأفلاطوني، وتم ضمه إلى طبقة العبيد والنساء، ومعاملته كممتلكات للدولة. وسار "أرسطو"على نهج أستاذه "أفلاطون"، حيث شبَّه وضع الطفل بوضع العبد، معتبرًا أنه لا يرقى إلى مستوى التفكير المنطقي.

أما الفيلسوف الفرنسي "روني ديكارت"Descartes René (1596_ 1650م) فقد أشار إلى مرحلة الطفولة على أنها المرحلة الناعمة، وأطلق عليها تسمية "مسح الطاولة"، مُشيرًا إلى ضرورة القتل الرمزي للطفل كشرط للتفكير الفلسفي. كما بقي موضوع الطفل مخفيًا ولا –مفكر فيه، إلى غاية الفيلسوف الفرنسي "جان جاك روسو" Jean–Jacques Rousseau (1712_ 1778م) الذي كتب مؤلفه "إميل في التربية"، كمقدمة لإعادة التفكير في قضايا التربية والطفولة، وتوالت من خلال ذلك، تساؤلات من قبيل: هل الطفل إنسان؟ هذا السؤال في حد ذا ته يدفعنا إلى التساؤل: هل هناك

إمكانية لأن يتفلسف الطفل؟ وهل يمكن أن يكون الطفل فيلسوفًا؟ وكيف يمكن المواءمة بين الطفولة و الفلسفة؟

للإجابة على هذه التساؤلات، نحتاج إلى النظر في طروحات متعددة، من بينها كتاب "فلسفة الطفولة" "لجاريث ماثيوس" Gareth B. Matthews (2011 _1929م) الذي انتقد فيه "جان بياجيه" Jean Piaget (1896_ 1980م) لعدم قدرته على رؤية التفكير الفلسفي لدى الأطفال. في المقابل، يرى عالم النفس والفيلسوف السويسري "جان بياجيه"، في نظريته حول النمو والبناء المعرفي، أن الطفل قبل بلوغه سن الثانية عشرة يكون غير قادر على التفكير الفلسفي، لأن معظم الأطفال في هذه المرحلة لا يستطيعون "التفكير في التفكير"، وهو نوع من التفكير العميق الذي يميز الحقل الفلسفي. وقد أكد في موضع ما من كتاباته أن العقل لا يولد مزودًا بمبادئ فطرية أو قبلية، بل إنه يتطور من خلال التجربة والتعلم. كما اقترح أن الذكاء العملي مسؤول عن تمثيل وتداول جوانب الواقع الديناميكية والتحوّليّة، وأن الذكاء المجازي مسؤول عن تمثيل جوانب الواقع الثابتة» (Piaget & Inhelder, 1973) وأشار أيضًا إلى ميل الأطفال إلى التمسك بوجهة نظره الخاصة، بدلًا من النظر في نظرة الآخرين. وذلك راجع إلى عدم علم الطفل بأن مفهوم «وجهات نظر مختلفة وموجود». (Piaget, A Child's Conception of Space, 1967, p. 178) فمعنى الطفل من منظور "بياجي" يعد المادة الخام للوعي، لذلك في نظريته حول التربية والتعليم، بيَّن تهافت مبادئ العقل التي نادى بها المناطقة، وتحديدًا مبدأ عدم التناقض، وعليه كان يركز على البحث في سؤال الطفولة انطلاقًا من «أن الواقع نظام ديناميكي من التغيير المستمر، وعلى هذا النحو، وأنه محدد في المراجع بالشرطين اللذين يحددا الأنظمة الديناميكية. وجادل، على وجه التحديد، حول انطواء الواقع على التحولات والحالات» .(Piaget, The role of action in the development of thinking. In Knowledge and development , 1977, p. 17_42)

يمكننا فهم العلاقة بشكل أدق من خلال العودة إلى مؤلف "الانسان الفيلسوف عن أسئلة الأطفال وإجابات الحكماء"، للباحث الأردني "معاذ بني عامر"، الذي تناول موضوع الطفل بما هو أقل

من فيلسوف، والفيلسوف، والانسان الفيلسوف، و الحكيم بما هو أكثر من فيلسوف. وهذه التصنيفات تمثل بناءً شاملًا لمشروع الإنسان المتفلسف.

ما يهمنا هنا هو الفصل الأول الذي جاء بعنوان "الطفل بما هو أقل من فيلسوف" حيث قال فيه: أن الطفل لا ينبغي أن يُنظر إليه كفيلسوف، ولا يُطلب منه أن يكون كذلك، لأن هذا تكليف يفوق طاقته، لذلك نخلط أحيانًا بين الدهشة والاحراج لكل من الفيلسوف والطفل، لكن ينبغي أن نفهم أن تساؤلات الأطفال تسكن بين لازمتين : الأولى "مفهوم اللا –زمانية" : أي أن أسئلة الأطفال تنبثق فجأة الى العالم، ثم لا تلبث أن تنطفئ فجأة، دون أن يسبقها أو يتبعها توسط زمني يشير إلى عملية عقلية معقدة يهدف الطفل من خلالها إلى طرح سؤال منتظر للإجابة عليه.

الثانية "مفهوم اللا –وعي" : أي أن أسئلة الأطفال ليست نتاجًا لإبداع فردي يقوم على حجج عقلية تبنى عن تساؤل محدد، بل هي استنطاق غير واعٍ لخبرات إنسانية متراكمة في الطفل على مستوى اللاوعي أو البيولوجيا ولم تحن ولادته المعرفية بعد. في هذا السياق، يقول معاذ بني عامر « يجنح الأطفال_ في كثير من الأحيان_ إلى طرح أسئلة قد تؤدي إلى:

1_ دهشة للآباء و الأمهات

2_ حرج للآباء و الأمهات

وهذا بدوره يؤدي إلى :

1_ الاعتناء بتلك الأسئلة في حالة الدهشة، عبر تنميتها والاعتناء بسياقاتها المختلفة.

2_ القضاء عليها في حالة الحرج، من خلال التحايل عليها لحظة انبثاقها وطمس معالمها مع الزمن » (عامر، 2021، صفحة 38) هذه الأسئلة اللازمانية واللاواعية تقابل لاحقًا إما بنوع من الدهشة أو بنوع من الحرج، ويضيف قائلًا « فإن أسئلة الأطفال في عمومياتها أسئلة غير واعية أو ناتجة من خبرات إنسانية غير واعية بالدرجة الأولى. من ثم هي أسئلة غير زمانية، أي أنها لا تترجى وفقاً لاعتبارات منطقية، إذ تنطلق بشكل فجائي طالما أنها تعبر عن خبرات غير واعية » (عامر، 2021، صفحة 45). وبالتالي، يمكن الحفاظ على هذه الروح الفلسفية لدى الأطفال عن طريق شحنها بالاهتمام، وهو الدور الذي تضطلع به الأسرة باعتبارها اللبنة الأساسية التي ينشأ فيها الطفل. هذا الاهتمام، بطبيعة الحال، ينمي الجانب السيكولوجي للطفل ويدفعه نحو التطور « لذا فإن ولادة الإنسان

ولادة معرفية _ بما هي ولادة واعية في الزمن _ لكي أعيد ضبط مورثاته التي توارثها في بيئته، ينبغي أن تسير في اتجاهين ليتحقق الانسان في شرطه كونه انسانا متفلسفا :اتجاه جمعي يتوافر على : 1_ أسرة_ 2_ مدرسة _3_المجتمتع_ 4_قرار سياسي » (عامر، 2021، صفحة 59_60)

إذًا، يمكننا القول إن الحفاظ على الحاضنة الأولى (الأسرة) يُعد أمرًا ضروريًا للحفاظ على الحاضنات الأخرى التي تشمل المدرسة، والمجتمع، والقرار السياسي. وفقًا للتصنيف الذي قدمه "معاذ بني عامر"، فإن حماية الطفل وتشجيعه على النماء يتطلبان اهتمامًا مستمرًا. لكن، إذا قوبل الطفل بالتعتيم والتكميم، فإن ذلك يؤدي إلى تدمير جميع الحاضنات المذكورة، كما يقود إلى قتل روح التساؤل فيه، مما يقضي بطبيعة الحال على نموذج الإنسان المتفلسف.

3. موت الانسان

ليس المقصود "بموت الانسان" هنا هو ما أقرته الفلسفة الفوكوية من أن العلوم الانسانية أفلتت سؤاله، وأن وسائل الانتاج أصبحت أهم منه، وإنما نعني بمسألة "الموت" هنا موت الانسان في صورته الطفولية، بمعنى أدق: موت الطفل في الانسان. وتم ذلك من خلال: إقصاء جدوة السؤال، أي اجهاض الأسئلة التي تنبع من اللحظة، ومن الطفولة، ومن الدهشة، ومن الفلسفة في نسختها الاولى التي تناقش الحياة والرغبة، بدلًا من الانشغال بقضايا الابستمولوجيا، والحقيقية، والعقل؛ فهذه المسائلات لا تتصل بالإنسان بشكلٍ جوهري، كما يمكن فهم "موت الإنسان" هنا ليس كموت بيولوجي، بل كموت الطفولة الفكرية التي تمثل جوهر التفكير الفلسفي.

يعكس هذا المصطلح تحولًا من روح الدهشة والفضول إلى التأمل المجرد، مما يعبر عن تغيير عميق في كيفية فهم الفلسفة وتطبيقها، كما تجسد الطفولة الفكرية حالة من الوعي المفعم بالفضول والدهشة، حيث يكون الإنسان منفتحًا على تساؤلات الحياة الكبرى دون حدود أو قيود، محاطًا بالحيرة والبحث المستمر عن معنى الوجود والواقع. هذا الطابع الطفولي الذي يثري الفكر الفلسفي بطرق جديدة ومبتكرة. ومع تطور الفكر الفلسفي، شهدنا تحولًا من التركيز على الأسئلة الطفولية التي تعكس الدهشة والفضول، إلى الانشغال بقضايا تجريدية وعقلانية أكثر، والذي يفضي إلى تراجع

أهمية الأسئلة التي تنبع من الحيرة الأولى (الطفولية)، واستبدالها بنقاشات تتسم بالمنهجية والموضوعية، مما أدى إلى تقليص دور الأسئلة التي كانت تدفع الفلسفة لاستكشاف أعماق التجربة الإنسانية والتأمل في معنى الحياة.

وفق هذا السياق، انحرفت الفلسفة والفيلسوف عن مسارهما الحقيقي، حيث أُفرغت الفلسفة الغربية من جانبها الطفولي وأصبح التركيز الأساسي فيها على قضايا العقل والحقيقة بشكل منهجي. بهذه الطريقة، تُسكت روح الطفولة الفكرية التي تُغذي التفكير الفلسفي بالفضول المستمر. يشير "موت الطفل الفلسفي" إلى فقدان الجانب الذي يعتمد على الحيرة والتساؤل، مما يؤدي إلى تحول الفلسفة إلى مجال يفتقر إلى الحيوية والإلهام؛ بمعنى من المعاني« أن امتلاك العقل من قبل الانسان املته عليه الضرورة، لكنها ليست ضرورة منطقية وإنما هي ضرورة حياتية ولم يكن ليمتلكه لو كان بوسعه أن يحيا على نحو آخر » (محمد، 2006، صفحة 32)

من هنا يمكن القول أن صنم العقل هو الذي حرك الفكر الفلسفي الغربي وبقيت مواضيع الفلسفة تدور في فلك الحقيقة، والشمولية، والمطلق، وأقصت جوانب الحياة الأخرى « فالاعتقاد السائد بأن العقل الإنساني قادر على التوصل إلى علم يستطيع أن يزوده بمعرفة يقينية وأنساق أخلاقية هو وهم ليس إلا » (الحليم، 2010، صفحة 173) وعليه، يتضح أن الفلسفة الحقيقية تتطلب الحفاظ على الروح الطفولية التي تجعل الفكر مستمرًا في التساؤل والتأمل. الطفولة الفكرية ليست مجرد مرحلة عمرية، بل هي الأساس الذي يُبنى عليه البحث الفلسفي الجاد. بدون هذا الطابع الطفولي، تصبح الفلسفة عملية تجريدية تفتقر إلى القدرة على استكشاف الوجود والحياة بطرق جديدة.

في النهاية، يعكس "موت الإنسان" في هذا السياق موت الطفولة الفكرية، وهي الروح الطفولية التي تُغذي التفكير الفلسفي بفضوله ودهشته. الحفاظ على هذا الطابع الطفولي أمر حيوي لاستمرار الحياة الفلسفية الحقيقية والإبداعية، لأنه يمثل الجوهر الذي يمنح الفلسفة عمقها وحيويتها، إذا فهمنا أن الطفل هو الفيلسوف الذي يسكنه الفضول والدهشة والحيرة، بينما قامت الفلسفة الغربية بإسكات هذا الطفل وتكميم فمه بواسطة الحقيقة والعقل، فإن ذلك يعني موته، وبالتالي موت الإنسان. إذا مات السؤال، مات الفيلسوف. فحياة الفلسفة وبقاؤها مبنيان على ذلك الفكر الطفولي المفعم بالدهشة، و الانهمام بالحيرة والقلق والانبهار أمام العالم.

4. موت الطفل

إذا كانت الفلسفة المعاصرة قد أعلنت **الموت** في كل أشكاله، مرةً للإله، ومرةً للمؤلف، ومرةً للإنسان، وكان الإنسان يتضمن الوجود بكل أشكاله، بما في ذلك **الطفل**، فإن الطفل **يعيش الحياة من خلال موته**، "موت الإله" إلى "موت الإنسان" إلى "موت الطفل"؛ المقصود بموت الطفل هو **عملية الإحياء لخاصية الطفولة فيه**، فحينما نعلن موته، نعلن في الوقت نفسه **ميلاده من جديد**، كما يُعد **يوم الطفولة** شكلًا من أشكال **موت الطفل**، حيث تشكل لحظة الاحتفاء باليوم العالمي من زاويةٍ أخرى إغتيالًا للطفولة بمعنى من المعاني، بالإضافة إلى أن هذه المواثيق الدولية تأتي **ضد مصلحة الطفولة**، لأنها ببساطة تفرض عليه تصورًا معينًا ينطوي على ايديولوجيات مباطنة غير مراعية لتيمة الطفولة ال**خاضعة لشرطية الزمان والمكان** ولها **خصوصيتها الثقافية**، كما لا يمكن مخاطبتها بوصفها شيئًا واحدًا. لذلك، فإن أي محاولة لإنتاج **نموذج عالمي أو كوني للطفل**، هو شكل من أشكال قتل **البراءة**، على الرغم من أننا قد نعتقد أن ظاهرها السلام /فكيف يمكن أن نتحدث عن **يوم عالمي للطفولة** بينما يعلم جميعنا أن الطفل لا يكون طفلاً إلا بفضل **خصوصيته المحلية والثقافية والاجتماعية**، وبالدرجة الأولى، تأثير **الأسرة** والوالدين والعامل التربوي **والمؤسسة التعليمية والمجتمع؟**

إذا اعتبرنا أن الآلة الغربية والأيديولوجيات والمنظمات العالمية مثل "اليونيسكو" (UNESCO) و"اليونيسف" (UNICEF) تسعى إلى العيش المشترك وخلق نموذج واحد للطفل الكوني، فإن هذا يقودنا إلى فرض حقيقة كلية تشمل جميع أطفال العالم. ولكن، كما يشير الفيلسوف الفرنسي "ميشيل فوكو أن «هذه الحقيقة ليست خارج السلطة وليست بدون سلطة» (فوكو، 1984، صفحة 70)؛ لذلك، وفي النهاية، فإن هذا الخطاب الكوني لا يخلو من السلطة كما عبّر" فوكو"، فكيف يمكن إقامة نموذج كوني لطفل عالمي تتدخل فيه سلطة خفية؟ علمًا بأن الطفل يتلقى تكوينًا خاصًا، وتربية مميزة منذ بدايته الأولى، وكان مختلفًا وفريدًا. كما ورد في الحديث: روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: قال النبي صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: "ما مِن مَوْلُودٍ إلَّا يُولَدُ على الفِطْرَةِ، فأبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أوْ يُنَصِّرَانِهِ، أوْ يُمَجِّسَانِهِ، كما تُنْتَجُ البَهِيمَةُ بَهِيمَةً جَمْعَاءَ، هلْ تُحِسُّونَ فِيهَا مِن

جَدْعَاءَ" (رواه البخاري ومسلم). ثم يقول أبو هريرة رضي الله عنه: "فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا" (الروم: 30). بناءً على ذلك، هناك اختلاف في الطفولة على مستوى التلقي؛ فبينما يكون الطفل في بنيته الفيزيولوجية واحدًا، فإنه في تركيبته الأنطولوجية يظل مختلفًا.

على هذا الأساس، يمكن أن تخلق هذه المنظمات العالمية نموذجًا لطفل عالمي يخدم مصالحها، لكنه قد لا يخدم طفولتنا المحلية .ومن ثم، لا بد من استدعاء المطرقة النيتشوية لفضح الادعاءات وكشف الزيف. فهل يوجد حقًا طفل عالمي؟.

5.الفطرة وكينونة الطفل

تم تشويه فطرة الطفولة من خلال إفراغها من كل المحتويات الثقافية والاجتماعية والدينية، فعلى سبيل المثال، أصبح الأطفال يشاركون في عروض الأزياء ومؤثرين على وسائل التواصل الاجتماعي، حيث يقدمون محتويات قد تكون خالية من القيم المتعارف عليها، مثل التنمر، والتدخل في عالم الكبار، والإساءة لهم. فغالبًا ما تؤدي هذه الأنشطة إلى كسر وتشويه البراءة والفطرة، وفي العالم الإسلامي يقوم كل مسلم بأداء فرائضه ويُربي عليها أطفاله، كتقليد متوارث في مجتمعنا العربي والإسلامي. لكن بالمقابل، يرفض المجتمع الغربي صوم الأطفال بحجة أنهم صغار ولا يستطيعون تحمل الجوع والعطش، وقد يتهمون والديهم بالاعتداء على طفولتهم، مما يعرضهم للمحاسبة أو حتى السجن.

هذا التباين في الرؤى التربوية ناتج عن اختلاف في فهم الطفولة للمجتمعين، بينما تسعى الأسرة المسلمة لتربية أطفالها على القيم والعادات الاسلامية، كما يُروى أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "مُروا أبناءكم بالصلاة وهم أبناء سبع، واضربوهم عليها وهم أبناء عشر، وفرقوا بينهم في المضاجع" (رواه أحمد وأبو داود). وإذا عدنا إلى التاريخ، نجد أن العالم العربي الإسلامي يزخر بالإنجازات. على سبيل المثال، نجد أن الأطفال دون سن التاسعة قد يحفظون القرآن الكريم عن ظهر قلب، وقد فتح "محمد الفاتح" كسرى وروم وهو في سن الرابعة عشرة، مما يشير إلى وجود اختلاف وتباين واضح بين نموذج الطفولة في العالم العربي ونموذج الطفولة في العالم الغربي. من هذا المنطلق فإن محاولة تسطيح مفهوم الطفولة وتطبيق نموذج كوني موحد هو بمثابة **إعدام** لهذا النموذج، إذ

لطالما سمعنا بدعاة الإنسانية المتجاوزة، الذين يسعون إلى إطالة فترة الطفولة وتأخير الشيخوخة عبر الوسائط الرقمية والإعلامية والأيديولوجيات المتطورة. هذه الرؤية تتيح للطفولة أن تمتد حتى سن الثامنة عشرة، مما يدمج فترة المراهقة ضمن هذه المرحلة الممتدة. ولكن، ما الحكمة من إطالة أمد الطفولة، وما الدلالات العميقة وراء هذا التمديد؟

يبدو أن هذا التوجه، ظاهريًا، بريئًا، ويسعى إلى توفير بيئة لرعاية ودعم أفضل للأطفال، وبالتالي السماح لهم بالاستمتاع بفترة أطول من البراءة والمتعة وحب الحياة. لكن، عند التوغل في أعماق هذه الفكرة، تظهر تساؤلات ملحة حول دلالات هذا التمديد.فمثلًا في التراث العربي الإسلامي، كان يُعتبر الطفل في سن مبكرة عالماً وقائداً، مما يعكس نموذجاً من النضج المبكر والقدرة على المساهمة في المجتمع بطرق متنوعة. فكيف يمكننا تفسير التباين بين هذا التصور التاريخي والنظرة المعاصرة التي تمدد الطفولة حتى سن الثامنة عشرة؟

لذلك، فإن هذه المشاريع الغربية المعاصرة تسعى لطمس الهوية البشرية، ويتجلى ذلك في الأمثلة الملموسة واقعيًا وإعلاميًا مثل تصنيف المحتوى الإعلامي باعتباره مناسبًا لمن هم في سن الثامنة عشرة وما فوق، بينما قد يكون المحتوى في جوهره عاديًا. كما أن الصلاحيات الممنوحة للأطفال لتقديم شكاوى ضد والديهم تفتح أبوابًا لتدخل أطراف خارجية في تربية الأبناء، مما يحوّل الأسرة إلى ساحة صراع، حيث يُنظر إلى الوالدين كأعداء، بدلاً من ذلك، قد يتطلع الأطفال إلى العلاقات مع الحيوانات الأليفة كتعويض عن الحرمان العاطفي، وهنا يتم خلق فجوة كبيرة في أساس الأسرة وبنيتها، بل قد تتسبب في شتاتها وانهيارها بشكل كلي.

تدفعنا هذه التحولات إلى أن نتأمل في معنى الطفولة ومعنى النضج، وكيفية تأثيرها على الروابط الأسرية. قد تكون إطالة فترة الطفولة محاولة للحفاظ على البراءة والنقاء في عالم سريع التغير، لكنها قد تؤدي إلى خلل في توازن النضج العاطفي.

وبالتالي، نحن مدعوون للتفكير في كيفية إيجاد توازن بين الحماية والرعاية والنمو الفعّال، لضمان أن يكون مفهوم الطفولة مدعومًا بالقيم التي تعزز النضج والتطور الشخصي، دون أن تتحول إلى عبء أو مصدر صراع. بمعنى من المعاني، يمكننا القول إن هناك "أنثروبوس" للطفل يتجلى في

ثنائية الحياة والموت، على سبيل المثال، يعاني الطفل الفلسطيني من الحرب والدمار والاحتلال، وهدم الخيام وتهميش جوانب الحياة الأساسية مثل التعليم والسكن والطعام واللباس. رغم أن الطفولة في غزة قد يُعتقد أنها مغتصبة، فإن الواقع يعكس شيئًا مختلفًا؛ فالطفل الغزاوي هو الوحيد الذي لم تُغتصب براءته ولم تُشوّه فطرته. بل هو الطفل الذي لا يخيفه شبح الموت، بل يولد متوجهًا صوبه وألفه وأعتاد عليه. هو النموذج الحقيقي الذي كشف الزيف الذي طالما تغنت به الأيديولوجيات الغربية، وفهم قيمة الحجر والتراب والأعداء الحقيقيين.

عندما نحاول وضع نموذج معين لهذا الطفل، فإننا في الحقيقة نحاول مخاطبة الإنسان من خلاله، وبالتالي ليس الهدف هو الطفل بحد ذاته. عن أي طفل نتحدث هنا؟ هل تعتبر الأيديولوجيات والفلسفات والمواثيق الغربية الطفل الغزاوي أو الفلسطيني أو العربي طفلاً وفقًا لمفاهيمها التقليدية؟ وإذا كان هناك تناقض بين التصورات المثالية للطفولة والواقع القاسي الذي يعيشه هؤلاء الأطفال، فكيف نحدد مفهوم الطفولة الذي نتحدث عنه: هل هو ما تروج له الأيديولوجيات الغربية، أم هو الطفولة التي تتشكل في سياقات النزاع والأزمات؟

بناءً على هذه الدراسة، نخلص إلى النتائج التالية:

1. **الطفولة والفلسفة** :تشترك الطفولة والفلسفة في استكشاف أسس الحياة من خلال التساؤل والدهشة. الأطفال يطرحون أسئلة عميقة وعفوية، بينما تعالج الفلسفة هذه الأسئلة بتحليل متعمق.
2. **أهمية الطفولة في تطور الفكر** :الطفولة تشكل مرحلة حاسمة في تطور الفكر البشري، حيث تستكشف الفلسفة كيفية تأثير هذه المرحلة على التفكير والفهم.
3. **الطفل كفيلسوف بسيط** :الأطفال يطرحون تساؤلات فلسفية، ولكن غالبًا ما تكون هذه الأسئلة أقل تعقيدًا مقارنة بتفكير الفلاسفة البالغين.
4. **الطفولة كمرحلة فكرية عميقة** :الطفولة ليست مجرد مرحلة بيولوجية، بل تجسد ذروة الفكر من خلال تساؤلات وتجارب إنسانية عميقة.
5. **مفهوم "موت الإنسان** :"يشير إلى فقدان الفضول الطفولي والدهشة الطبيعية، مما يعكس انقطاع الأسئلة البسيطة التي تميز الطفولة.

6. **تجاهل الأسئلة الطفولية** :الأسئلة المتعلقة بالحياة والرغبة التي تنبثق من الطفولة تُعتبر غالبًا غير مهمة في الفلسفة التي تركز على العقل والحقيقة.
7. **إقصاء الفضول الطفولي** :تحول الفلسفة الغربية نحو العقل والحقيقة قد يتسبب في إقصاء الفضول الطفولي، مما يؤدي إلى "موت" الطفل داخل الإنسان.
8. **تأثير "موت السؤال" على الفلسفة** :فقدان الأسئلة الطفولية يعادل فقدان حيوية الفلسفة، التي تعتمد على الطابع الطفولي للفضول.
9. **تغيير مفهوم الطفولة**" :موت الطفل" يعبر عن تحول في فهم الطفولة، حيث يتضمن فقدان البراءة والفضول وإعادة تشكيل مفهوم الطفولة بما يتماشى مع السياقات الثقافية العالمية.
10. **الطفولة والعالمية** :يوم الطفولة العالمي قد يفرض تصورات موحدة تتجاهل الخصوصيات الثقافية، والنماذج العالمية قد لا تعكس التنوع الثقافي بشكل كامل.
11. **تأثير إزالة المحتوى الثقافي** :إزالة المحتوى الثقافي والديني من حياة الأطفال يؤثر على براءتهم ويعارض القيم التقليدية.
12. **التباين الثقافي في فهم الطفولة** :يختلف فهم الطفولة بين الثقافات، حيث تُعتبر في العالم العربي مرحلة إنجازات مبكرة، بينما في الغرب تُمدد فترة الطفولة بشكل لا يتماشى دائمًا مع التجربة الثقافية.
13. **أهمية الطفولة في السياسات والمجتمعات** :الطفولة تتجاوز الحقوق والرعاية، بل تؤثر بشكل عميق على السياسات والمجتمعات. فهمها بشكل أعمق يوفر رؤى حول الأزمات الإنسانية والاجتماعية والسياسية.

6.خاتمة:

في الختام، يتضح أن موضوع الطفولة يتجاوز مجرد الحقوق والرعاية والحياة. المسألة ليست مقتصرة على هذا المستوى الأساسي والبسيط، بل هي أعمق بكثير مما نتخيل. من خلال التطرق إلى هذا الموضوع، يمكننا فهم العديد من المتغيرات التي شهدها العالم على الصعيدين السياسي والاقتصادي والاجتماعي. موضوع الطفولة ليس موضوعًا بسيطًا أو مقتصرًا على الدراسات النفسية والاجتماعية

والأنثروبولوجية فقط. بل هو موضوع يؤثر على سياسات الدول، باعتباره مفتاحًا لفهم العديد من الأزمات التي تؤثر على الإنسان وبيئته ومجتمعه وأبحاثه وأرضه بشكل عام.

يبقى الطفل هو الموضوع الذي يظل مرتبطًا بالإنسان، حيث يُقال في الأدبيات الاجتماعية والنفسية إن كل إنسان يحمل في داخله طفلًا صغيرًا. هذا الطفل الصغير يظهر ويفرح ويسعد عندما يتلقى رعاية والدية تشمل العطف والحنان، بينما يخبو ويختفي عندما يواجه بيئة تفتقر إلى التفهم، وتشهد صراعات واختلافات في الرأي، وتهاجم الطفولة بجميع أشكالها. في النهاية، يظل الإنسان حيًا طالما أن الطفل بداخله حي، ويموت بموته. فهل يمكننا إذًا أن نفهم عمق الطفولة وتداعياتها دون أن نتعامل معها كجوهر أساسي في كل من إنسانيتنا وحياتنا الاجتماعية؟.

6. قائمة المراجع:

1-الأندلسي، محمد: نيتشه وسياسة الفلسفة، دار توبقال للنشر، المغرب، ط 1، 2006.

2-معاذ بني عامر: الإنسان الفيلسوف، عن أسئلة الأطفال وإجابات الحكماء، وزارة الثقافة، عمان، د.ط، 2021 م.

3-ميشال فوكو: نظام الخطاب، تر: محمد سبيلا، دار التنوير للنشر، لبنان، ط1، 1984.

4-Piaget, J. & Inhelder, B. (1973). Memory and Intelligence. London: Routledge and Kegan Paul.

5-Piaget, J. (1967). A Child's Conception of Space. Norton Edition,

6-Piaget, J. (1977). The Role of Action in the Development of Thinking. In Knowledge and Development.